رسالة «السيرة الفلسفية»

الطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازي

لأحمد فؤاد الأهواني

هي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة العلمية ، أخرجها من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات مستشرق ألماني يشتغل الآن في باريس أستاذاً بمدرسة الدراسات العليا الملحقة بجامعة السوربون ، اسمهُ بول كراوس Paul Kraus . تقابلت وإياه في باريس في صيف هذا العام ، وأطلعني على هذه الرسالة التي نشرها في مجلة اورينتاليا [1] التي تصدر في روما ، وأردفها بترجمة فرنسية للرسالة ، وتحليل لها أيضاً ، والاستاذ كراوس قد اختصَّ بدراسة الرازي ويعمل بالفعل على إخراج كثير من كتبهِ ، وقد أعجبتني هذه الرسالة الصغيرة من السيرة الفلسفية التي وضعها الرازي فأحببت ان اقدم ملخصها للقراء لما فيها من نفع . ويترجم له صاحب أخبار الحكماء فيقول: [2]

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، وأحد المشهورين في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة . وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً . وألّف كتباً كثيرة يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى اكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الطبيعية والالهية ، الا انهُ توغل في العلم الالهي وما فهم غرضهُ الاقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة وذمّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدى لسبيلهم . ودبر مارستان الري ثم مارستان بغداد زماناً ثم عمي في آخر عمرهِ وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلثمائة . هذا قول القاضي صاعد بن الحسن الاندلسي . وذكر ابن شيراز في تاريخه انهُ توفي سنة اربع وستين وثلثمائة . وذكره ابن جلجل الاندلسي في كتابه فقال : ابو بكر الرازي مسلم النحلة اديب طبيب مارستاني ، دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد طويلاً ، وكان في إبتداء أمره يضرب بالعود ثم نزع عن ذلك وأكبّ على النظر في الطب والفلسفة وبرع فيها براعة المتقدمين ، وألّف في الطب كتباً كثيرة بديعة ... وعمي في آخر زمانه بماء نزل على عينيهِ فقيل له لو قدحت ؟ ! قال : لا ، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت ، فلم يسمح لعينيهِ بالقدح ، وكان في زمن المكتفي ، قلت وفي بعض زمن المقتدر ؛

« وذكره محمد بن اسحاق بن النديم في كتابهِ فقال : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من اهل الري ، أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب . وكان ينتقل في البلدان ، وبينهُ وبين المنصور بن اسماعيل صداقة ، وله ألّف كتاب المنصوري . قال ابو الحسن

(١) Revue Orientalia (٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي طبعة الخانجي في مصر ص ١٧٨

الوراق : قال لي رجل من اهل الري شيخ كبير سألته عن الرازي فقال : كان شيخاً كبير الرأس مصفطه وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون ، وكان يجيء الرجل فيسمع ما يجد لاول من يلقاه منهم ، فان كان عنده علم والاّ تعداه الى غيره ، فان اصابوا والاّ تكلم الرازي في ذلك . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاّء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم . قال ولم يكن يفارق النسخ إما يبيض وإما يسوّد . وكانت في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلاء ، وفي آخر عمره عمي . . . »

ويقول الاستاذ كراوس في تحقيق هذا الخطوط إن « السيرة الفلسفية » قد ذكرت ضمن الكتب المنسوبة الى الرازي . وقد ذكره « البيروني » في رسالته تحت هذا العنوان « السيرة الفلسفية » وهو العنوان المرقوم في هذا المخطوط الوحيد . اما ابن ابي اصيبعة فيذكر عدة تآليف الأرجح — في نظر الاستاذ كراوس — انها ترجع الى كتاب واحد منها كتاب « سيرة الحكماء » ، و « في السيرة الفاضلة » و « سيرة أهل المدينة الفاضلة » ، و « في سيرته » . أما القفطي فيذكر عن ابن النديم ضمن تآليف الرازي « كتاب في السيرة الفاضلة » . وتبدأ الرسالة على هذا النحو

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابو بكر محمد ابن زكريا الرازي — ألحق الله روحه بالروح والراحة إن ناساً من أهل النظر والتمييز والتحصيل ، لما رأونا نداخل الناس ونتصرف في وجوه من المعاش عابونا واستنقصونا وزعموا أنا حائدون عن سيرة الفلاسفة ولا سيما عن سيرة إمامنا سقراط المأثور عنه أنه كان لا يغشى الملوك ويستخف بهم إذ هم غشوه ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتني ولا يلبس ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يشهد لهواً ، بل كان مقتصراً على أكل الحشيش ، والالتفاف في كساء خلق والايواء إلى جب في البرية ، وأنه ايضاً لم يكن يستعمل التقية للعوام ولا للسلطان بل يحبهم بما هو الحق عنده بأشرح الالفاظ وأبينها وأما نحن فعلى خلاف ذلك . ثم قالوا في مساوىء هذه السيرة التي صار بها إمامنا سقراط أنها مخالفة لما عليه مجرى الطبع ، وقوام الحرث والنسل ، وداعية إلى خراب العالم وبوار الناس وهلاكهم ، ونجيبهم بما عندنا في ذلك إن شاء الله

فنقول : أما ما أثروه عن سقراط وذكروه فقد صدقوا وقد كان ذلك منه ، لكنهم جهلوا منه أشياء أخر وتركوا ذكرها تعمداً لوجوب موضع الحجة علينا . وذلك أن هذه الامور التي أثروها عن سقراط قد كانت منه في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ثم انتقل عن كثير منها حتى انه مات عن بنات ، وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلاّ من اللحم ، وشرب يسير المسكر ، وذلك معلوم مأثور عند من عني باستقصاء أخبار هذا الرجل . وإنما كان منه ما كان في بدأ أمره لشدة حبه بالفلسفة وحبه لها ، وحرصه على صرف زمان الشهوات ، واشتغل باللذات إليها ومؤاتاة طبعه له على ذلك واستخفافه واسترذاله لمن يلاحظ الفلسفة بالعين التي تستحق أن تلاحظ بها ، وآثر ما هو أخس منها عليها . ولا بدّ في أول الأمور المشوقة المعشوقة من فضل

ميل إليها وإفراط في حبها وإيثارها وشنآن المخالفين فيها ، حتى إذا وغل فيها ، وقرّت الأمور به قرارها سقط الافراط فيها ، ورجع إلى الاعتدال كما يقال في المثل « لكل جديد لذة » . فهذه كانت حال سقراط في تلك المدة من عمره ، وسار ما أثروه عنه من هذه الامور أشهر وأكثر لأنها أطرف وأعجب وأبعد من أحوال الناس ، والناس مولعون بإذاعة الطريف النادر ، والاضراب عن المألوف والمعتاد . فلسنا إذاً بمخالفين للأمر الأحمد من سيرة سقراط ، وإن كنا مقصرين عنهُ في ذلك تقصيراً كثيراً ومقرين بالنقص عن استعمال السيرة العادلة وقمع الهوى ومحبة العلم والحرص عليه . فخلافنا اذاً لسقراط ليس في كيفية السيرة بل في كميتها ، ولسنا بمنقصين إن اقررنا بالنقص عنهُ إذ كان ذلك هو الحق ، وكان الاقرار بالحق أكثر شرفاً وفضيلة . فهذا ما نقوله في هذا الموضوع

وأما ما عابوه من السيرة الاولى من سيرتي سقراط فانا نقول : إن المعيب منها بحق أيضاً كميتها لا كيفيتها ، إذ من البين انهُ ليس الانهماك في الشهوات وإيثارها الأمر الأفضل الأشرف على ما بيّنا في كتابنا « الطب الروحاني » لكن الأخذ من كل حاجة بمقدار ما لابد منهُ او بمقدار ما لايجلب ألماً على اللذة المصابة منها . وقد رجع سقراط عن المفرط منها الذي هو للمعيب بالحقيقة ، والداعي إلى خراب العالم وبوار الناس ، إذ قد عاد الى ان أنسل وحارب العدو وحضر مجالس اللهو . ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار الناس ، وليس يجب أن لا يكون كذلك حتى يكون متعرقاً في الشهوات ونحن وان كنا غير مستحقين لاسم الفلسفة بالاضافة الى سقراط ، فانا مستحقون لاسمها بالاضافة الى الناس غير المتفلسفين . . . .

« واذ قد بينا ما اردنا بيانه في هذا الموضع فنرجع ونبين ما عندنا ، ونذكر الطاعنين علينا ، ونذكر انا لم نسر بسيرة الى يومنا هذا — بتوفيق الله ومعونته — نستحق ان نخرج بها عن التسمية فيلسوفاً . وذلك ان المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه ، مَن قصّر في جزءي الفلسفة جميعاً ، اعني العلم والعمل بجهل ما للفيلسوف ان يعلمه ، او سار بما ليس للفيلسوف ان يسير به . ونحن بحمد الله ومنّه وتوفيقه وارشاده فبرآء من ذلك . اما في باب العلم فمن قِبَل انّا لو لم تكن عندنا منه الا القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعاً عن ان يمحى عنا اسم الفلسفة فضلاً عن مثل كتابنا في البرهان ، وفي العلم الالهي ، وفي الطب الروحاني . . . والكتاب الموسوم بالجامع الذي لم يسبقني اليه احد من اهل المملكة ولا احتذى فيه احد بعد احتذائي وحذوي . . . فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمى فيلسوفاً ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

خصص الرازي هذه الرسالة في الرد على هاجيه ومنتقديه ، وعرض للذين يخلعون عنه لقب الفيلسوف ، فرسم الطريق الذي يسلكه صاحب الفلسفة عامة ، وشرح حياة سقراط ليستخرج منها النهج السوي اذ كان سقراط المثل الاعلى الذي يحتذى في الاخلاق . وقد نعود في كلمة اخرى الى المبادىء الاخلاقية التي ذكرها الرازي في هذه الرسالة فهي طريفة حقّاً وجديرة بالبسط والتفكير . ولكني اريد ان اوجه النظر الى الطريقة التي عالج بها هذا الفيلسوف الدفاع عن نفسه ،

فاز بصفة العلماء المتواضع ، ولكن كثيراً من المفكرين خرجوا على هذا التقليد ، فكتبوا تاريخ حياتهم ، ذكروا فيه أحوالهم الشخصية ، ورسموا طرائق معاشهم ، ولم يجدوا في مدح أنفسهم نقصاً أو عيباً ، وكل أدرى بنفسه . ولعل الرازي إذا لم يكن قد سلم من هجمات المعارضين ، ونقدات الناقدين ، فذلك لأنه هو كان البادىء بمهاجمة علماء زمانه ونقد من قدمهم ، وإذا كانت هذه المؤلفات قد ضاعت أصولها وفقدت متونها ، فإن أسماءها تدل عليها ، وقد عددت مؤلفاته حسب ما ورد في « أخبار الحكماء » فكانت مائة وستة وثلاثين كتاباً ، « وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني إلى وقت عملي هذه المقالة في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والإلهي » كما ذكر هو عن نفسه في هذه الرسالة . ثم انظر إلى كتبه مثل « الرد على الناشىء في نقضه الطب » . وكتاب « في الأسباب المميلة لقلوب الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسائهم » و « كتاب الرد على أبي قاسم البلخي في نقضه المقالة الثانية في العلم الإلهي » و « كتاب الرد على الجاحظ في نقض الطب » و « كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضل الكلام » و « كتاب نقض النقض على البلخي في العلم الإلهي » و « كتاب في أن بعض الناس ترك الطبيب » و « رسالة لم صار جهال الأطباء والنساء في المدن أكثر من النساء » .... فمن هذه الكتب ما ناقض به أعلاماً من الكتاب الذين سبقوه كالجاحظ ، ومنها ما عارض بها أهل زمانه ومعاصريه . ويخيل إلينا أن هذه المعارضة كانت عنيفة بل بالغة في العنف ، يؤيدها إيمانه المتأصل بأنه وحيد عصره في العلم والفلسفة والطب كما ذكر عن نفسه حيث قال « فإن لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق أن اسمى فيلسوفاً فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

وقد سرد بعد ذلك طرفاً من سيرته الخاصة ، يعتذر بها عن نفسه فقال : « فإني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ، ولا متولي أعماله ، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين أمرين : أما في وقت مرضه فعلاجه وإصلاح أمر بدنه ، وأما في وقت صحة بدنه فإيناسه والمشورة عليه — يعلم الله ذلك مني — بجميع ما رجوت به عائدة صلاح عليه وعلى رعيته ، ولا ظهر مني على شره في جمع مال وسرف فيه ، ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم ، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير من حقوقي . وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني أني لم أتعد إلى طرف الإفراط ، وكذلك في سائر أحوالي مما يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية . فأما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني ، إني لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا ، مكباً عليه حتى أني متى اتفق لي كتاب لم أقرأه ، أو رجل لم ألقه لم ألتفت إلى شغل بتة — ولو كان في ذلك علي عظيم ضرر — دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل . وإنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمله الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث علي فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي »